البعد الماركسي في تفسير مصطفى الأشرف لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من خلال كتابه: "الجزائر الأمة والمجتمع" ((دراسة نقدية تحليلية)).

The Marxist dimension in Mustafa Al-Ashraf's interpretation of the history of the Algerian national movement Through his book: "Algeria, the Nation and Society" ((Analytical critical study).

1– مولود قرين*، جامعة المدية (الجزائر)

mouloudgrine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/04/08 تاريخ القبول: 2022/05/09 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

تسلط الدراسة الضوء على إحدى الأدوات المنهجية التي وظفها المثقف الجزائري "مصطفى الأشرف" في كتابته لتاريخ المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية في كتابه الجزائر الأمة والمجتمع". فالقارئ المتمعن لمقالات الكتاب سيدرك أنه وظف أدوات المدرسة الماركسية القائمة على التفسير المادي للتاريخ، لذلك حولنا استجلاء مظاهر توظيفه للمدرسة الماركسية، وإبراز عوامل اعتماده عليها، والمتمثلة في انتمائه الفكري والسياسي الاشتراكي، وانتمائه الأسري (أسرة فلاحية)، وتأثره ببعض الكتاب الفرنسيين دوي التوجه الماركسي.

ولعل أبرز نتيجة توصلت إليها الدراسة هو أن الأشرف كان متأثرا بالبعد الماركسي في دراسته لحركية المجتمع الجزائري ولمقاومته، فكان يعتقد بأن الصراع كان صراع بين طبقتين طبقة "الأهالي" المسلمين المظلومين الذين اغتصبت أراضيهم، وطبقة الكولون الذين استأثروا بخيرات الجزائر. ولكن رغم ذلك فدراسة الأشرف تعطينا صورة عن تطور المجتمع الجزائري بفعالياته المختلفة بمعزل – رغم صعوبة ذلك- عن الإدارة الفرنسية، كما أن جهود الأشرف في التاريخ تعتبر لبنة هامة من أجل التأسيس لمدرسة تاريخية جزائرية قادرة على التخلص من إرث المدرسة التاريخية الاستعمارية.

كلمات مفتاحية: مصطفى الأشرف، المدرسة الماركسية، الحركة الوطنية، المقاومة.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

The study sheds light on one of the methodological tools that the Algerian intellectual "Mustafa Al-Ashraf" employed in his writing of the history of the Algerian resistance and the national movement in his book "Algeria, the Nation and Society." The study is that Al-Ashraf was influenced by the Marxist dimension in his study of the movement of Algerian society and its resistance. He believed that the conflict was a struggle between two classes, the Muslim class and the Colon class, who are the ones who are affected by the bounties of Algeria.

Keywords: Mustafa Al-Ashraf ; the Marxist school ; the national movement ; the resistance.

- **مقدمة**

لقد مثل الاستعمار الفرنسي للجزائر أبشع صورة للاستعمار الأوروبي الحديث الذي استهدف قارتي إفريقيا وآسيا، إذ لم يكتف بإلغاء السيادة الوطنية، والاستيلاء على أرض وخيرات الجزائريين فقط، بل استهدف مقوماتهم الشخصية وطمس ذاكرتهم الجماعية، وشوه تاريخهم الناصع بالبطولات بما يخدم المشروع الاستعماري، وفي هذا الإطار تندرج جهود مجموعة من المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين أمثال: "بربروجر، إرنست مارسي، ستيفن غزال" وغيرهم، حيث كرسوا جهودهم لجمع التراث الجزائري وفهمه فهما عميقا، ثم إعادة بنائه وتفسيره وفق ما يخدم المشروع الكولونيالي، وهذا ما يعرف "بالمدرسة التاريخية الاستعمارية"، التي لا زالت للأسف مستمرة إلى اليوم من خلال أبحاثها التي تحمل بين طياتها قنابل موقوتة وإن كانت تتم تحت غطاء مؤسسات بحث أكاديمية كبيرة.

فمن هذا المنطلق كانت "تنقية التاريخ الوطني" أو "تخليص التاريخ من الاستعمار" على حد تعبير "الشريف الساحلي" واجب وطني اضطلعت به النخبة الوطنية غداة الاستقلال مباشرة، وعدته استمرارية لجهود الكفاح التحرري. ورغم التباين الواضح في تفسير التاريخ الوطني في منظور نخبة ما بعد الاستقلال، إلا أن الهدف يبقى واحد ألا وهو الرد على من حاولوا تشويه تاريخ الجزائر. ولعل من أبرز الوجوه التي عنيت بالموضوع، وخصصت له حيزا كبيرا في كتاباتها، المثقف والمجاهد "مصطفى الأشرف"، الذي حاول من خلال كتاباته الكثيرة والمتنوعة أن يفند مزاعم وحجج المؤرخين الفرنسيين في نظرتهم إلى الأمة الجزائرية وإلى تاريخها، وهذا ما نلمسه بكل وضوح من خلال كتابه: "الجزائر الأمة والمجتمع" الذي ترجمه الدكتور حنفي بن عيسى ونشره سنة 1983.

والدراسة المتأنية لفصول الكتاب تجعل صاحبها يستشف أن الأشرف، قد فسر حركية المجتمع الجزائري، وتطور الحركة الوطنية الجزائرية تفسيرا ماديا بمسحة ماركسية إن صح التعبير، أو بعبارة أخرى تحليله للتاريخ لم يكن شموليا، حيث ركز على البعد الاقتصادي وهمش الأبعاد الأخرى (الدينية، الثقافية، الاجتماعية)، وجعل من طبقة الفلاحين الفاعل الرئيسي في الحركة الوطنية، كما يلاحظ كذلك توظيفه للمصطلحات والتعابير اليسارية مثل: "البروليتاريا" (العمال)، والطبقة الكادحة والمتوسطة، الإقطاعيون، النظام الإمبريالي ...إلخ. ففيم يظهر ذلك يا ترى؟، وما هي أهم العوامل التي جعلته ينحو ذلك المنحى، هل انتمائه الاجتماعي والثقافي والإيديولوجي؟ أم أن الموضوعية والدقة العلمية التي حرص "كل الحرص على التقيد بها" على حد تعبيره هي التي فرضت ذلك؟ وما قيمة أعمال الأشرف إن لم يأت بالجديد، خاصة إذا كانت كتاباته التاريخية في طرحها شبيهة بكتابات بعض المؤرخين الفرنسيين أمثال: "شارل روبير أجيرون" و "إيف لاكوست" وغيرهم ؟. وقبل الإجابة على إشكالية الموضوع بودنا أن نقدم تعريفا موجزا للكاتب وللكتاب (الجزائر الأمة والمجتمع) الذي نحن بصدد تحليله، وكذا تقديم صورة مختصرة لمفهوم التفسير المادي أو الماركسي للتاريخ.

1. الكاتب والكتاب تعريف مقتضب:

1.1مصطفى الأشرف:

ولد مصطفى الأشرف يوم 17 مارس 1917م، من أسرة عريقة، ببلدية سيدي عيسى، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه في المدارس القرآنية الحرة، وتلقى تعليما مزدوجا (عربيا وفرنسيا). تحصل على شهادة التعليم الابتدائي بعدما قرأ الكلاسيكيات الفرنسية (الأدب الفرنسي)[1] ، وبعض المصادر وكتب التراث العربية القديمة والحديثة، مثل معلقات شعراء العرب القديمة، وأدب شعراء المهجر مثل "جبران خليل جبران"، "جورجي زيدان" وغيرهم[2].

[1]- عبد الكريم بوالصفصاف، "مشروع المجتمع الجزائري في نظر النخبة الوطنية -مصطفى الأشرف نموذجا" ، **مجلة الحوار الفكري** ، جامعة منتوري، قسنطينة (الجزائر)، ديسمبر 2005،ع07، ص 25.

[2]- كمال خليل، **المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر التأسيس والتطور 1850 – 1951**، رسالة ماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة منتوري بقسنطينة (الجزائر)، 2008، ص 137.

وفي سنة 1930 أخذه أبوه إلى العاصمة للدراسة في ثانوية "بن عكنون" الداخلية[1]، ولما عجز الأب على توفير مصاريف المدرسة الداخلية، سجله سنة 1932م في ثانوية العاصمة التي كانت تسمى "بالثانوية الكبيرة" وذلك بعدما وجد له إيواء عند أحد أصدقائه القدامى قرب الثانوية. ومنذ سنة 1934م التحق بالمدرسة الثعالبية إلى غاية 1940م، وبعدها التحق بجامعة السربون بباريس التي تحصل فيها على شهادة الليسانس في الآداب، وبعد تخرجه التحق بالتعليم حيث درس بثانوية "لويس الكبير" Louis Le Grand بباريس، وعند عودته إلى الجزائر اشتغل أستاذا للغة العربية في إحدى ثانويات مستغانم ثم في ثانوية معسكر.

وفي سنة 1939م التحق بالعمل السياسي عن طريق الانخراط في "حزب الشعب الجزائري"، وفي إطار الحزب اهتم بمهمة الإشهار والتوعية عن طريق المقالات التي كان ينشرها في الجريدة السرية للحزب "البرلمان الجزائري" (le parlement algérien)، كما عمل كمترجم في الجريدة الرسمية إلى غاية 1942م. وفي صيف 1945م سافر إلى السربون بعدما حول معهد الدراسات الشرقية إلى السربون وكان يعمل في ذلك المعهد كمترجم ومحرر، وفي نفس الوقت كلفه حزب الشعب المحظور في هذه الفترة بمهمة التنسيق بين الوطنيين في فرنسا[2].

وبعد أزمة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1953 وانقسام الحزب إلى مصاليين ومركزين التزم الأشرف الحياد، إلى غاية التحاقه بجبهة التحرير الوطني. وفي سنة 1956 سافر من باريس إلى إسبانيا واتصل بمحمد خيذر واقترح عليه الانضمام إلى اللجنة التي ستتوجه إلى المغرب قصد المشاركة في اجتماع بين قادة الجبهة وبورقيبة ومحمد الخامس في أكتوبر 1956م، وفي نفس السنة تعرض مع بقية الزعماء الأربعة لعملية "القرصنة الجوية" المعروفة بطائرة القادة الخمسة وهم: (الأشرف-بن بلة أحمد- محمد خيذر- محمد بوضياف- حسين أيت أحمد)، حيث اعتقل في سجن La santé بباريس حتى أطلق سراحه سنة 1961م بسبب ظروفه الصحية المزرية وإبقاؤه تحت الإقامة الجبرية، لكنه استطاع الفرار إلى القاهرة، ثم انتقل إلى تونس إلى غاية الاستقلال. وبعد الاستقلال تولى عدة وظائف ديبلوماسة وحكومية منها: سفير الجزائر في الأرجنتين ثم البيرو ثم وزيرا للتربية والتعليم (1977-1979م) ثم سفيرا في المكسيك سنة 1979م، ثم ممثلا للجزائر في اليونيسكو (1982-1986م).

---

[1] -Mostafa Lacheraf, **Des Noms et des lieux, mémoire d'une Algérie oubliée**, Casbah, 2eme éditons, Alger, 2003, p 251.

[2] - Ibid, p181.

وفي سنة 1992م عين في المجلس الوطني الانتقالي الذي نصبه الرئيس الراحل محمد بوضياف، ليغيب عن الحياة السياسية إلى غاية وفاته بالعاصمة يوم 21 ديسمبر 2006م[1].

ومن مؤلفاته: "الجزائر الأمة والمجتمع"، "كتابات تربوية حول الثقافة والمجتمع" وهو عبارة عن مقالات ونصوص كتبت ما بين 1968-1987م، وكتاب "الجزائر العالم الثالث تعديات مقاومات، تضامن دولي" وهو عبارة عن ست دراسات كتبت مابين 1973م و 1987م، وكتاب "أدب الكفاح"، وكتاب "أعلام ومعالم، مآثر عن جزائر منسية" صدر له سنة 1988م وهو عبارة عن مذكرات تؤرخ لحياته وظروف دراسته ونشاطه السياسي ثم التحاقه بالثورة وسجنه.

2.1 الجزائر الأمة والمجتمع:

الكتاب هو عبارة عن مجموعة من المقالات والنصوص، عددها إحدى عشر مقالة، كتبها المؤلف خلال عشر سنوات (1954- 1964م)، قام بطرح خطوطها العريضة في مقدمة مطولة، كان الهدف من الكتاب حسب ما ذكره في المقدمة دحض الحجج والأدلة الباطلة حول التاريخ الوطني وإعادة الأمور إلى حقائقها[2].

تناول في المقال الأول العلاقة بين الاستعمار والإقطاعية، فكيلاهما في نظره عدو للشعب، أما في المقال الثاني فقد تناول نمو الوطنية في الأرياف والبوادي، أما في المقال الثالث الذي عنونه بـ" الجوانب النفسية في الغزو الاستعماري" رصد من خلاله سياسات الاستعمار الفرنسي الهادفة إلى القضاء على الشعب الجزائري مستندا في تحليله إلى مجموعة كبيرة من الضباط الفرنسيين الذين كانوا شهود عيان لسياسة القمع والإبادة. أما المقال الرابع المعنون بـ " مسيرة الجزائر إلى الحرية"، تناول فيه القانون الأساسي الجزائري (دستور الجزائر 1947م) وبين هشاشة المجلس النيابي، كما تناول قضية أزمة حزب الشعب 1953م وكيف تم تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

أما المقال الخامس الموسوم بـ: "مسيرة القومية التحررية إلى الوحدة" درس من خلاله حزب جبهة التحرير الوطني المنبثقة عن اللجنة الثورية للوحدة والعمل، كما تناول فيه موقف فرنسا من الثورة حيث عملت جاهدة على وأدها في المهد لكن دون جدوى، لذلك استعانت بمجموعة من الأعيان

---

[1]- كمال خليل ، مرجع سابق، ص 139.

[2]- مصطفى الأشرف ، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة: حنفي بن عيسى، م.و.ك، ط1، الجزائر، 1983م، ص5.

الجزائريين والمنتخبين الحكوميين، وحاولت بعث مشاريع الإدماج من جديد وذلك من خلال مشروع "جاك سوستيل"، غير أن الثورة استطاعت أن تتصدى لهذه السياسة خاصة بعدما استطاعت الجبهة أن تستقطب تيارات الحركة الوطنية مثل الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (فرحات عباس) وجمعية العلماء المسلمين سنة 1956م.

أما في المقال السادس: "الاتجاه الثوري في المدن منذ 1830م وتنظيم المقاومة والكفاح" ففي هذا المقال قارن بين الوطنية في الأرياف والمدن، واستنتج أن وطنية الأرياف أقوى من وطنية المدن، وذهب في هذا النص إلى القول بأن الحركة الوطنية الجزائرية نشأت بين العمال الجزائريين في باريس (نجم شمال إفريقيا) ثم انتقلت إلى الجزائر بعد تأسيس الحزب الشعب الجزائري. وتناول في المقال السابع (الخط الثابت في السلوك الاستعماري سياسيا وعسكريا من 1830-1960م) بين فيه نظرة المؤرخين الفرنسيين للاحتلال الفرنسي الذين عملوا جاهدين على تبرير الغزو وادعوا بأن الاستعمار رسول حضارة و سلام في شمال إفريقيا، كما رصد أعمال المذهب "السان سيموني" في الجزائر طيلة فترة الاحتلال، وتعرض كذلك إلى سياسة التنصير والغزو الثقافي.

في حين جاء المقال الثامن المعنون بـ "الجوانب المجهولة من الثورة الجزائرية" فقد بين بداية المحادثات بين الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة الجزائرية، وموقف الجزائريين المتمسك بمبادئ الثورة التي لا تقبل المساومة المتعلقة بالسيادة الكاملة والوحدة الترابية والوحدة القومية. وشرح عقم النشاط السياسي في الجزائر بعد 1945م، وانتقد بشدة موقف "مصالي الحاج" وحزبه وتصرفاته الارتجالية، وفي نفس الوقت أشاد بالتنظيم المحكم لجيش التحرير الوطني، وبمصداقية الحكومة الجزائرية المؤقتة لدى الشعب الجزائري . أما المقال التاسع الموسوم بـ :" الجزائر المستقلة من النكسة إلى الوحدة"، نشره بعد شهر من أزمة صائفة 1962م، حذر من خطورة الأزمة التي يمكن أن تتحول إلى حرب أهلية إذا انتقل الصراع إلى القاعدة الشعبية. وفي المقال العاشر "وقائع وأفاق ثورية" قدم الأشرف مجموعة من التوصيات أكد فيها أن بناء الدولة يتم وفق طرق منهجية وأسس تشريعية ثابتة وتقويم دقيق ومعمق للوضع العام للمجتمع الجزائري. وفي المقال الأخير "نظرات اجتماعية حول الحركة القومية والثقافية في الجزائر" تعرض الأشرف فيه إلى نتائج الاستعمار الفرنسي الثقافية، كانتشار الأمية، وركود اللغة العربية لذا دعا إلى ضرورة تطوير اللغة حتى تستطيع مواكبة التطور، كما دعا إلى ضرورة تطوير الثقافة الجزائرية وجعلها منفتحة على الثقافات الأجنبية، واعتبر أن اللغة العربية كانت أقرب إلى أمور الدين عما هي إلى الشؤون الدنيوية، وألح الأشرف على استعمال اللغة الدارجة لكي تكون قاعدة لمن يريد تعلم الفصحى. وفي هذا المقال كذلك انتقد بشدة البرجوازية الانتهازية التى تسعى إلى الاستئثار بالسلطة في الجزائر على حساب الجماهير الشعبية.

2. المدرسة الماركسية (التفسير المادي للتاريخ):

أشهر رواد هذه المدرسة" كارل ماكس"(1818- 1830م)، و"فردريك إنجليز". فماركس يعتقد أن فكرة التاريخ تقوم على تصور عام لتاريخ البشرية الذي مر بعدة مراحل حركته الحاجة الاقتصادية والصراع الطبقي. فبعد ما كان اقتصاد المجتمع يقوم على اللقيطة من الطبيعة، وأن كل ما هو موجود في الطبيعة مشاع بين الأفراد، انتقل إلى مجتمع زراعي إقطاعي، ثم إلى مجتمع صناعي رأسمالي أفرز ظهور نخبة من البرجوازيين، إلا أن هذه الأخيرة حسب تعبير "ماركس": "تحمل بذور فنائها بين طياتها"[1]، لأن في اعتقاده الاستغلال الفاحش الذي تقوم به البرجوازية ضد الطبقة الشغيلة (البروليتاريا) سيؤدي بهذه الأخيرة إلى الثورة، وانتزاع حقها بيدها، وبذلك تعود الملكية المشاعة بين جميع الأفراد مثل ما كانت عليه في المرحلة الأولى للتاريخ البشري، وهذا ما يسمى: بـ"الحتمية التاريخية للنظرية الشيوعية". تقوم تفسيرات "ماكس" للتاريخ على فلسفة "هيجل" الجدلية المبنية على التناقضات الموجودة داخل المجتمع، وإن كان "هيجل" يركز على التناقضات الفكرية، فإن "كارل ماكس" فإنه يعتقد بأن "صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما ادعى هيجل، وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع دون تغيير"[2]. وقد عبر "ماكس" عن ذلك بقوله: "...إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا هو تاريخ صراع الطبقات، الحر والعبد، النبيل والعامي، البارون والقن، بكلمة المضطهدون والمضطهدين كانوا على الدوام في مواجهة، لقد خاضوا صراعا بلا انقطاع، هذا الصراع كان مقنعا أحيانا ومكشوفا أحيانا أخرى، كان في كل مرة ينتهي بتحول ثورة للمجتمع بكامله، أو بتدمير الطبقات المتصارعة"[3].

أما "إنجلز" ففي كتابه: "الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية" فإنه يقول: "...إن الإنتاج والعلاقات كل العلاقات الاقتصادية لا يمثلون سوى عناوين لتاريخ الحضارة..."[4]، ومن هذا المنطلق فإن التاريخ في رأي إنجلز لا يمثل سوى صراع الطبقات الاجتماعية فيما بينها[1].

---

[1]- كارل ماركس، فريدريك إنجلز، **البيان الشيوعي**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، دت، ص 206.

[2]- عبد الحميد صديقي، **تفسير التاريخ**، ترجمة: كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، 1970، ص 91.

[3]- نفسه.

[4]- Malek Ben Nabi, **L'Idée d'un Commonwealth Islamique**, Imprimerie de la Faculté d'Alger, Algérie, 1970, P 47.

فرضت المدرسة الماركسية نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، ووظفها كثير من المؤرخين، خاصة الفرنسيين منهم الذين انخرطوا في الحزب الشيوعي الفرنسي 1945- 1960م، واتجهت اهتمامات المؤرخين للقضايا الاجتماعية عامة والعماليةخاصة[2].

3. مظاهر التفسير المادي لتاريخ الحركة الوطنية عند الأرشرف:

1.3 الدور الفعال للفلاحين والطبقة الكادحة في المقاومة الوطنية:

يرى الأشرف في كتابه أن أول من حمل لواء المقاومة ضد الأجانب بصفة عامة وضد الفرنسيين بصفة خاصة هم الفلاحون من سكان الريف الجزائري، الذين أظهروا شجاعة كبيرة، وقاوموا ببسالة منقطعة النظير، وذلك من أجل استرجاع "أراضيهم والأملاك العقارية والمراعي، والحقول التي انتزعها منهم المعمرون من ذوي الأغراض والأطماع"[3]. فالأرض والمشكلة الزراعية كانت الشغل الشاغل بالنسبة للفلاح وكانت "بمثابة المحرك والدافع للبذل والتضحية"[4]. فأول المقامين في نظره هم الفلاحون من ذوي الدخل المتوسط، وسكان بعض المدن والقرى، فقاموا على حد تعبيره: "قومة رجل واحد ليدافعوا عن كيانهم" وعن أراضيهم[5].

فطيلة القرن التاسع عشر ظل الفلاحون الجزائريون يعملون على استرجاع أرض الشمل (أراضي العرش)[6]، ويحاربون غطرسة الكولون الذين استأثروا بالثروة الجزائرية، وعملوا كل ما في وسعهم لاحتقار الأهالي مسلمين ويهودا. وحسب "الأشرف" فإن طبقة الفلاحين الكادحة قدمت صورة بطولية في تضامنها في التصدي للمجاعات الناجمة عن الافتكاك المنظم للأراضي الزراعية، ويستشهد بأحد شهود العيان الذين زاروا الجزائر في هذه الفترة وهو "كلاماجيران" (Clamageran) الذي قال "...عندما كانت المجاعة تودي بحياة السكان العرب في الشتاء الرهيب الذي عرفته البلاد في 1867 و1868، التجأ الآلاف من المشردين الهائمين في منطقة القبائل. والكثير منهم لاقوا حتفهم في الطريق نتيجة لما

---

[1] - Ibid, p85.

[2] - فريد بن سليمان، **مدخل إلى دراسة التاريخ**، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000م، ص 112.

[3] - مصطفى الأشرف، مرجع سابق ، ص 09.

[4] - نفسه، ص 10.

[5] - نفسه، ص 38.

[6] - نفسه، ص 14.

عانوه من عذاب، ولكن أهالي المنطقة عاملوهم جميعا بالحسنى، وأسعفوهم بالأدوية وهكذا فلم يمت أحد منهم جوعا في منطقة القبائل ..."[1]. ومظاهر التضامن والجهود المضنية للفلاحين من أجل استرجاع أراضيهم، ظلت متواصلة طيلة الاحتلال الفرنسي للجزائر رغم قوة السلاح وسياسة القمع المنتهجة ضدهم[2].

أما الطبقة "البرجوازية" المشكلة من "العائلات الكبرى" ومن إدارة النظام التركي البائد (المخزن) فقد ظلت مترددة، لكن لم يطل أمد ترددها كثيرا، فمنذ سنة 1832م بعد ظهور شخصية "الأمير عبد القادر"، واعتماده على شخصيات غير معروفة، لم يجد الإقطاعيون بدا إلا في أن يخدموا قضية غير عادلة ولكنها غانمة ألا وهي قضية المستعمر الدخيل، لأن مصالحهم الطبقية لم تسمح لهم بالنزول إلى مستوى الشعب، كما أنهم شعروا بالرغبة الشديدة التي تختلج نفوس الطبقات الشعبية في التحرر والحد من ظلم الإقطاعيين[3].

حاول الأشرف أن يقدم تفسيرالأسباب تأخر الكفاح في المدن الجزائرية إلى غاية 1945م، وهو – في نظره- فقدانها لطبقة كادحة عكس البوادي والأرياف، حيث كان النضال وكانت المقاومة الموجهة ضد الاستعمار وضد أعوان الاستعمار الإداري والزراعي . أما في المدن فاستطاع المستوطنون أن يؤثروا على الأهالي في نمط الحياة والميل إلى الرغد من العيش[4]. كما أن "الأشرف" لم ينظر نظرة سلبية إلى المدينة فقط، بل انتقد بشدة نخبها الذين كانوا يصفون أنفسهم "بأنهم من سكان المستقرين المثقفين الميالين للهدوء والسلم والطمأنينة والهناء"، وحسب الأشرف "أن هؤلاء البرجوازيون أنانيون إذ يتحدثون عن الهناء والرزق واحترام السلطة والرفاهية بينما كان إخوانهم من أبناء الشعب يعانون الأمرين من الاستعمار، وبذلك رسموا لأنفسهم صورة حية عن أنانية الطبقة البرجوازية"[5].

ولكن في الواقع الاستعمار الفرنسي لم يفرق بين الريف والمدينة الجزائرية، فكلا المجتمعين تعرضا بنفس الوتيرة إلى سياسة التحطيم، فمثلما حطمت بنى الريف الاجتماعية بمحاولة كسب

---

[1]- نفسه، ص 16.

[2]- نفسه.

[3]- نفسه، ص 54.

[4]- نفسه، ص 37.

[5]- نفسه، ص 63.

الإقطاعية القديمة (المخزن) الذين أغدقت عليهم المناصب والامتيازات على حساب السواد الأعظم من الفلاحين، ومن الأسر النافذة التي حاولت فرنسا استمالتها كوسيلة لفرض سيطرتها على البلاد، مثل أسرة أولاد "سيدي الشيخ" في الجنوب الوهراني، وأسرة "المقراني" في مجانة وأسرة "ابن قانة" في بسكرة والزيبان، وأسرة "بوعكاز بن عاشور"، و"أولاد ابن عز الدين" في فرجيوة والزواغة في البابور، وأسرة "أوقاسي" في تيزي وزو، و"أولاد مختار" بالتيطري، و"ابن صيام" في مليانة وغيرهم.[1]

أما في المدن والحواضر الكبرى فإن الإدارة الاستعمارية قد حاولت في السنوات الأولى للاحتلال استمالة أعيان المدن ونخبها لكي يكونوا واسطة بينها وبين الأهالي، وأول تجربة لها كانت مع نخبة مدينة الجزائر (طبقة الحضر) أمثال "حمدان خوجة" و"ابن العنابي" بالإضافة إلى "أحمد بوضربة" و"حمدان آغا، إبراهيم ابن مصطفى وابن عمر"[2]. فأسندوا لهم بعض الوظائف الإدارية، فمنهم من تولى منصب "آغا العرب" مثل "حمدان بن أمين السكة"، ومنهم من أصبح بايا على التيطري مثل "مصطفى ابن عمر"، ومنهم من أصبح رئيسا لأول مجلس بلدي لمدينة الجزائر مثل "أحمد بوضربة"[3]. وذلك بعدما أن تمكنت سلطات الاحتلال من إقناعهم بأن حملتها كانت تأديبية للداي حسين، وأنها جاءت تخلصهم من سيطرة الأتراك وأن تكون منهم حكومة على رأس الجزائر، غير أن ممارسات فرنسا المنافية لبنود معاهدة الاستسلام ولمختلف الوعود التي قطعتها على نفسها أمام "نخبة الحضر"[4]، جعلتهم يراجعون

---

[1] - - يحى بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ثورات القرن التاسع عشر**، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م، ص 239.

[2] - أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**، ج2، دار الغرب الإسلامي ، ط4، بيروت، 1992م، ص30.

[3] - أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال**، دار الرائد، عالم المعرفة، طبعة خاصة، الجزائر 2009م، ص 66.

[4] - أكدت السلطات الاستعمارية قبل انطلاق حملتها العسكرية على الجزائر من خلال البيان الفرنسي الموجه إلى الشعب الجزائري بأنها لا تنوى اغتصاب السيادة ومما جاء في البيان: "...إننا نحن أصدقاؤكم الفرنسيون نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر... إننا لن نأخذ المدينة منهم (الأتراك) لكي نكون سادة عليها. إننا نقسم على ذلك بمبادئنا، وإذا انضممتم إلينا وإذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا فسيكون الحكم في أيديكم كما كان في السابق وستكونون سادة مستقلين في وطنكم..."، للإطلاع على نص البيان كاملا انظر: - أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**،ج1، ش.و.ن.ت، ط1، الجزائر، 1988م، ص 192.

حساباتهم ومواقفهم ضد الاحتلال خاصة وأنهم رأوا خزينتهم تنهب وأموالهم وممتلكاتهم تصادر، وحرمات دينهم ومقدساتهم تنتهك، والأوقاف والحبوس المختلفة التي كانت تشكل مواردا أساسية لمؤسسات التعليم تصادر وتضاف إلى خزينة الحكومة الاستعمارية. لذلك حاولوا أن يقاوموا الاحتلال سياسيا مثل: إرسال العرائض والرسائل الاحتجاجية، والوقوف أمام لجان التحقيق الفرنسية مثل اللجنة الإفريقية 1833م بهدف الإدلاء بشهاداتهم وفضح أساليب الاستعمار، الذي ادعى بأنه رسول الحضارة والسلام في شمال إفريقا.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن "الأشرف" في نظرته إلى نخب المدينة ومثقفيها كانت مستمدة من المقاربة "الغرامشية" نسبة إلى الفيلسوف الإيطالي "أنطونيو غرامشي" الذي تعتبر أفكاره من أهم ما أنجبته المدرسة الماركسية حول المثقفين ودورهم في المجتمع (المثقف العضوي)، فهو يركز على أهمية تجاوز فكرة استقلالية المثقفين وانعزالهم عن الطبقات وصراعها[1]، فالنخب الواعية الخلاقة في نظره هي التي تقود الحركات الاجتماعية، بينما النخب الفاشلة هي التي تبقى حبيسة مصالحها الضيقة. فالأشرف يرى أن نخب المدن "كانت اهتماماتهم الوطنية سطحية خالية من كل إيديولوجية "فكانت لهم أفكار بعضها مستمد من الغرب والبعض الآخر من الشرق، والنزر القليل من المغرب العربي"[2]، فنشاط هؤلاء ومطالبهم لا تتماشى وتطلعات الجماهير الشعبية، فاتصالهم بالشعب والأرياف قليلة جدا، "يمكن تحديدها بالتوالي (1914-1918)، والفترة الواقعة عام 1936م، والفترة التي جرت فيها الانتخابات الفرنسية والجزائرية في 1946و1948م"[3]. أي أثناء الحرب العالمية الأولى لما خرجت النخبة تدعوا الشعب للمشاركة إلى جانب فرنسا في الحرب، وفي عام 1936م لما خرجت النخبة بكل أطيافها للترويج لقرارات المؤتمر الإسلامي، أما فترة الانتخابات فكانت بهدف كسب الأصوات الانتخابية .

غير أن الحقيقة عكس ذلك تماما، فمثلما قاوم سكان الأرياف والبوادي، لم يبق كذلك سكان المدن والحواضر مكتوفي الأيدي، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة بروز نخبة وطنية واعية بشقيها المعرب والمفرنس حملت على عاتقها محاربة الجمود الفكري الذي عرفته

[1]- عمار بلحسن، **إنتليجانسيا أم مثقفون في الجزائر**، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1986م، ص 33.
[2]- مصطفى الأشرف، مرجع سابق ، ص 23.
[3]- نفسه.

الجزائر قرابة قرن من الزمن[1]، مستغلة وسائل العدو وتناقضات سياسته، لتوجد لنفسها وسائل مقاومة جديدة كإرسال العرائض والوفود[2]، وتأسيس الجمعيات والنوادي الثقافية، وإصدار الجرائد باللغة العربية التي كانت منبرا للمطالبة بالحقوق، والتصدي للمخططات الاستعمارية الجهنمية الهادفة إلى تحقيق أسطورة " الجزائر الفرنسية"، وكذلك محاربة البدع والخرافات والخزعبلات التي روجتها الطرقية المتحالفة مع الإدارة الاستعمارية، والعمل على توعية الشباب الجزائري وإخراجه من غياهب الجهل والظلمات.

ويعتقد الأشرف أن السبب الرئيسي الذي دفع بسكان الريف إلى التصدي للاستعمار الفرنسي هو الحفاظ على الأرض وصيانتها، ومنع مصادرتها، متناسيا الأبعاد الأخرى لمقاومة الريف الجزائري، خاصة البعد الوطني لأن الفلاح الجزائري رغم سذاجته وبساطته وقلة وعيه السياسي إلى أنه ظل متمسكا بانتمائه لعشيرته ووطنه والذود عنه بالغالي والنفيس، كما أن البعد الديني "الجهاد" شكل المحور الرئيسي في جل المقاومات الوطنية. ويبدو أن السبب الذي جعل الأشرف يرى بأن الدفاع عن الأرض كان السبب الجوهري لجل المقاومات يعود إلى البيئة الريفية التي نشأ فيها، وإلى الأسرة الفلاحية التي ينتمي إليها، والتي كانت كغيرها من الأسر الريفية الجزائرية، فالأرض عند أفرادها بمثابة الشرف، فالمتعدي على الأرض كالمتعدي على العرض. والظاهر أن الأشرف كان قد احتفظ بذكريات طفولته الصعبة والظروف القاسية التي كان يعيشها الطفل الجزائري في الريف الذي كان من الصعب جدا أن يلتحق بالمدرسة، وإن التحق بها فظروفه حسب الأشرف مأسوية جدا، "كان الالتحاق بتلك المدارس صعب لأطفال في سن العاشرة والثانية عشر، فهم يعانون من قلة التغذية واللباس خاصة في فصل الشتاء"[3].

2.3 الأشرف ينزع صفة الجهاد والبعد الديني في المقاومة :

[1]- مولود قرين، **عمر بن قدور الجزائري دوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دراسة في فكره السياسي والإصلاحي**، ج1، دار الخليل العلمية، الجزائر، 2013م، ص6.

[2]أحمد مريوش، "ثقافة المقاومة ونماذج من عرائض الأهالي الجزائريين إلى فرنسا خلال القرن 19"، **حوليات التاريخ والجغرافيا** ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة (الجزائر)، ع6، ديسمبر 2012م، ص 106.

[3] - Lacheraf, op-cit , p 184.

يصف الأشرف زعماء المقاومات الشعبية، بأنهم كانوا ثوارا بأتم معنى الكلمة، لأنهم لم يولوا عناية كبيرة بالمسائل السياسية إلا نادرا، وثورية هؤلاء الزعماء مستمدة في قدرتهم على تعبئة الجماهير الشعبية ضد الاستعمار بهدف استرجاع السيادة الوطنية. كما اعتبر كفاحهم طبقي خاضته جموع الفلاحين ضد ضباط الاحتلال الفرنسي وبعض الإقطاعيين الموالين لفرنسا من أبناء "الأسر الغنية الكبرى المسيطرة على الأراضي" ، ويستشهد في ذلك بمقاومة الأمير عبد القادر الذي استطاع بفضل ثوريته أن "يعبئ طاقات الشعب ليخوض غمار الحرب" من أجل بناء دولة ذات سيادة والقضاء على السلطة الغاشمة[1].

وقد فند الأشرف نظرة المؤرخين الأجانب وحتى الجزائريين الذين تناولوا تاريخ المقاومات الشعبية القائلين بأن الشعور الديني أو "التعصب الإسلامي" على حد تعبير المؤرخين الفرنسيين كان سببا في المقاومة. فحسب الأشرف فإن الجزائريين كغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو غير الإسلام من الديانات الأخرى وتعرضت للغزو الأجنبي وقاومت وحاربت أعدائها في الداخل والخارج. وقد ساق الأشرف عدة أدلة لتبرير طرحه من بينها الثورات التي قامت بها بعض الزوايا في الجزائر ضد الأتراك العثمانيين رغم وحدة الدين بين الطرفين. وكذلك استخدام الأمير عبد القادر لليهود في بعض المأموريات، مثل معاهدة "دي ميشيل في 1834م" فالفضل في نجاحها يعود "إلى يهوديين من وهران، هما بوشناق ومردوشي عمار"[2].

أما الإعلان عن الجهاد فلم يكن إلا حربا دفاعية لحماية الوطن، فما كان هذا الإعلان إلا من أجل دفع الناس إلى خوض غمار حرب فرضها الأجنبي الدخيل، فالجهاد في نظره ما هو "إلا شعار يضاهي الشعار الذي رفعته الثورة الفرنسية، واعتبرته من أقدس مقدساتها، ألا وهو (الوطن في خطر)[3].

3.3 ثورة المقراني انتفاضة ضد الظلم الاقتصادي:

تعتبر نتائج ثورة المقراني والشيخ الحداد سنة 1871 بداية لعهد جديد في تاريخ السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وذلك لما تلاها من قوانين تعسفية وزجرية، كان أشهرها وأخطرها

[1]- مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 46.
[2]- نفسه، ص 50.
[3]- نفسه.

"قانون الأهالي" الذي صدر مباشرة بعد القضاء على الثورة و طبق رسميا سنة 1881، لذلك عبر المؤرخ الفرنسي "شارل روبير أجيرون" عن ما تلا الثورة في أطروحته الأكاديمية "الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م" بـ (ويل للمهزومين).

فالنتائج الوخيمة التي خلفتها ثورة المقارني، وانتصار المستوطنين الأوروبيين الذين أضحوا يتحكمون في كل المجالات، جعلتها تحضى بدراسات كثيرة من طرف المؤرخين الفرنسيين والمؤرخين الجزائريين على حد سواء. ومن بين الذين تناولوا الانتفاضة، وحاولوا أن يفسروا بواعثها "مصطفى الأشرف" الذي يرى بأنها كانت نتيجة حتمية للظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردية، خاصة مجاعة 1868م التي ذهب ضحيتها أكثر من خمسمائة ألف نسمة، وما زاد الثورة لهيبا حسب الأشرف "التهديد بانتزاع الأراضي من الأهالي لكي توزع على الفرنسيين القادمين من الألزاس واللورين"[1].

فالمجاعة، وسياسة مصادرة الأراضي، وظلم الإقطاعيين كلها عوامل أدت إلى إيقاظ الوعي الوطني، يقول الأشرف: "... وانتفض الشعب انتفاضة جديرة بالشعوب المضطهدة المهددة في حياتها وأراضيها، وأعطى الدليل القاطع على أن هذا الوعي متغلغل في النفوس، وخاصة نفوس الفلاحين. إن هذا الوعي لا علاقة له بالإيديولوجيات المعروفة لأنه وليد الشعور بالخطر الذي يهدد مصير الأمة...نحن نعتقد أن الفلاحين وحدهم، هم الذين تمثل فيهم هذا الوعي الجماعي الذي انتشر في 1871م، بعدما انتزعت منهم الأراضي، وأهلكتهم المجاعات ونالهم على يد القياد ما نالهم من الظلم والاضطهاد ..."[2].

وفي نظر الأشرف فإن الفلاحين هم الذين أجبروا زعماء ورؤساء بعض القبائل للالتحاق بركب الثورة. ويفند الأشرف طروحات القائلين بأن الثورة كانت نتيجة لطيش وتهور الأهالي الذين لم يحسبوا حساباتها جيدا، وإنما كانت في نظره نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل جعلت "الفلاحين أولا، وأفراد الطبقة المتوسطة ثانيا، يشعرون بسوء حالتهم العامة في تلك البلاد التي أصبحت لغمة سائغة للمعمرين الجشعين، وللضباط العسكريين، والأوروبيين المقيمين في المدن الكبرى، وأصحاب الربا والاحتكار، والإقطاعيين الظالمين"[3]. أما العوامل الأخرى فهي المشاكل الاجتماعية وخاصة مشاكل الزراعة، وكذا الاستغلال البشع للأهالي من طرف المعمرين.

---

[1]- نفسه، ص 60.

[2]- نفسه، ص 62.

[3]- نفسه، ص 67.

ويشير "الأشرف" إلى أن "المقارني" وكأنه ركب موجة سخط الفلاحين على النظام "الإمبريالي"، لأن الفلاحين في نظره كانوا على أتم الاستعداد للقيام بالثورة. وتحالف المقراني مع الطبقات الشعبية كان في منظور الأشرف تحالف استراتيجي أملته مصلحة المقراني، لأنه أدرك بأن تحالفه مع العائلات الكبرى سيبقيه وحيدا، وأمله في النصر يكون ضعيفا، وفي هذا الصدد يقول الأشرف: "...وقد اضطر (أي المقراني) إلى التغلب على أمر ربما كرهته نفسه، وهو التحالف مع الطبقات الشعبية، مما جعل رفاقه الإقطاعيين يذكرونه دائما بهذه الغلطة، لأنه في نظرهم، مسخ الحركة حينما نزل بها إلى مستوى العامة ..."[1]. كما أنه اضطر للتحالف مع "الشيخ الحداد" مقدم الزاوية الرحمانية بصدوق لما للزاوية من نفوذ روحي في الأوساط الشعبية.

إن تحليل الأشرف لبواعث ثورة المقراني لا يختلف كثيرا عن تحليل الكثير من المؤرخين الفرنسيين الذين تناولوا دراسة الثورات الشعبية في الجزائر ، إذ أخضعوا المجتمع الجزائري المستعمر إلى التقسيمات الطبقية التي تجعل من صراع الطبقات محركا رئيسيا لطبيعة ردود الفعل الجزائري على الواقع الاستعماري. و يعد هذا التوجه ركيزة اعتمد عليها المؤرخون الفرنسيون الذين أرخوا للمقاومات الشعبية في القرن 19 من أمثال" لويس رين"، و "بول أزان" ومن سار على دربهم أمثال "شارل أندري جوليان" و "أندري نوشي" و"إيف لاكوست" و "آجيرون" وغيرهم فدعموا هذا التوجه وقاموا بتطعيمه بمسحة ماركسية تقوم على إبراز الطابع البروليتاري للحركة الوطنية الجزائرية من أجل التأسيس لفكرة أن المنطلق الطبقي كان المحرك الرئيسي في الصراع مع الاستعمار.

فمثلا لويس رين في كتابه: "تاريخ ثورة 1871م بالجزائر" (**Histoire de L'Insurrection de 1871 en Algérie**) يذهب إلى أن سبب الثورة هو فقدان الأسر والعائلات الارستقراطية الجزائرية لامتيازاتها مما جعلها تعلن التمرد ضد الإدارة الفرنسية"[2].

غير أن ثورة المقراني وإن كانت مجاعة 1866م بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس إذا صح التعبير، إلا أنها لم تكن السبب الرئيس في الثورة، فالثورة كانت تعبيرا صادقا عن رفض الجزائريين للسياسة الاستعمارية التي بلغت أوجها في أواخر الستينات ومطلع سبعينيات القرن التاسع عشر، فإلى جانب سياسة التجويع والتفقير بمصادرة أراضي الجزائريين وقطع عنهم منابع الرزق، هناك سياسات

[1] - نفسه، ص 72.

[2] - Louis Rinn, **Histoire de L'Insurrection de 1871 en Algérie**, Imp: Jourdan, Alger, 1890.

أخرى كانت أكثر وطأة في مقدمتها اتساع حركة الاستيطان، وسعي الكولون للاستقلال بالجزائر عن باريس حتى يستأثروا بخيراتها المختلفة. فحركة الاستيطان بلغت أوجها خلال الجمهورية الثالثة (1870-1914م) التي خطت بسياسة الاستيطان خطى شاسعة، ففي سنة 1876م أصبح عدد المعمرين حوالي 344ألف معمر[1]، إضافة إلى يهود الجزائر الذين أصبحوا بفضل قانون "كريميو" (Crémieux)[2] الصادر يوم 24أكتوبر1870م مواطنين فرنسيين يتمتعون بجميع الحقوق ويتبوؤون مختلف المناصب العليا، وحسب "فرحات عباس"، فأن هدف الإدارة الاستعمارية من وراء هذا القانون هو إخراج اليهود من "حظيرة الشعب الجزائري وعزل هذا الأخير عزلة بعد عزلة"[3]. كما أن سياسة التنصير قد بلغت أوجها خاصة بعدما عين الكاردينال "لافيجري"(Lavigerie)[4] على رأس أسقفية الجزائر ما بين سنوات (1867-1892م)، و كان يهدف إلى تحقيق "الإدماج عن طريق التبشير وليس عن طريق القوة"، لذلك استغل مجاعة 1866 لتنصير الأطفال اليتامى، فكان "لافيجري" يحمل الخبز بيد والصليب باليد الأخرى، لذلك رفض الجزائريون هذه السياسة رفضا مطلقا ولبوا دعوة المقراني والشيخ الحداد للجهاد لنصرة دينهم[5].

---

[1] فرحات عباس، **حرب الجزائر وثوراتها، ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال،مطبعة فضالة، المحمدية، دت، ص 96.

[2] - كريميو: هو رجل قانون فرنسي يهودي الديانة، اشتغل وزير العدل في عهد "نابليون الثالث" وبعدها عين مسؤولا عن الشؤون الجزائرية لدى لجنة الدفاع الوطني، فاغتنم تلك الفرضة واستن قانونا جعل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين، للمزيد انظر:

- شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م**، ج1، ترجمة: م.حاج مسعود، ع. بلعربي، دط، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م، ص ص 29-31.

[3] - فرحات عباس، مصدرسابق، ص 96.

[4] - لافيجري شارل مارسيال ألمان: (1825-1892م) ولد في مدينة بايون بجنوب فرنسا، تولى إدارة أسقفية الجزائر، وأسس فرقة الآباء البيض التي حملت على عاتقها نشر المسيحية في شمال إفريقيا ووسطها، انظر: - خديجة بقطاش، **الحركة التبشيرية في الجزائر (1830-1871)** 1، منشورات دحلب، ط1، الجزائر 1992م ، ص 131.

[5] - يحي بوعزيز، **ثورة الباشاغا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م**، ، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر 2009م، ص 98.

4. جذور الحركة الوطنية الجزائرية في منظور الأشرف:

يفند "الأشرف" طروحات القائلين بأن جذور الحركة الوطنية الجزائرية والشعور القومي في الجزائر دخيل، مثل امتداده للمغرب أو المشرق، فهو في اعتقاده شعور أصيل نبع "من صميم واقع البلاد، نجم عن تطور تاريخي أصيل"، فالحركة الوطنية الجزائرية كانت نتيجة حتمية للمشكلة الزراعية العويصة، وللصراع الطبقي الناتج في نظره عن "التعايش التعسفي بين طوائف متفاوتة في الحقوق"، كما أنها كانت نتيجة لاستعمار غاشم مستديم اعتبر أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي. ويعود "الأشرف" إلى التذكير بوطنية الفلاحين الجزائريين الذين كانوا حسب تعبيره "أكثر تفطننا من أهالي المدن للخطر الداهم الذي كان يهددهم بالدرجة الأولى، لذلك عبروا عن وطنيتهم بالمحاربة وحمل السلاح"[1].

ويرى الأشرف أنه بعدما فشلت الوطنية الريفية، وما تلاها من إجراءات تعسفية ضد سكان الأرياف والبوادي، حلت محلها القومية في المدن وذلك بعد مضي خمسين سنة من الاحتلال. غير أن قومية المدينة في نظره كانت غامضة شبه خالية من الفكر الإيديولوجي، وحتى قومية المدن يرجعها إلى الفلاحين المغتربين في فرنسا. ويقر الأشرف بأنه رغم ما ساهمت به "حركة الأمير خالد" حفيد الأمير عبد القادر في إيقاظ الوعي الجزائري غير أنها لم تجد أي صدى لدى المثقفين وسكان المدن وأعيان البوادي. ولكن سكان الأرياف والبوادي المغتربين في فرنسا اقتنعوا بحركة الأمير خالد، وكنتيجة حتمية لظروفهم المعيشية في باريس واتصالاتهم الخارجية خاصة مع الحركة الشيوعية استطاعوا أن يؤسسوا حزب نجم شمال إفريقيا "الذي أخذ ينمو بسرعة، ويشتد يوما بعد يوم، رغم التهديد والوعيد"[2].

ويقسم الأشرف تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى (1830-1871) وهي مرحلة المقاومات الشعبية. أما المرحلة الثانية فتمتد (1871-1920م) أي الفترة التي تلت ثورة المقراني وما صاحبها من إجراءات زجرية وسيطرة مطلقة للكلون وهدوء نسبي للجزائريين. أما المرحلة الثالثة فتبدأ مع حركة الأمير خالد ثم دخلت هذه المرحلة في طورها الإيجابي بعد تأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1923م[3] (لم يتأسس النجم سنة 1923م وإنما سنة 1926م).

---

[1]- الأشرف، مرجع سابق، ص 76.

[2]- نفسه، ص ص 78- 79.

[3]- نفسه.

لقد كان الأشرف محقا نسبيا في جذور الحركة الوطنية الجزائرية، فهي ذاتية واقعية إن صح التعبير، فهي على حد تعبير "محمد الطاهر فضلاء": "...نبعت من آلام وآمال هذا الشعب واستهدفت أول ما استهدفته حياة الشعب ونهضته"[1]، عكس ما يدعيه بعض المؤرخين خاصة رواد المدرسة التاريخية الفرنسية الذين يزعمون بأن حركة الوطنية في الجزائر هي امتداد لحركة الإصلاح في المشرق والمغرب الإسلاميين. ففعلا قد ساهمت أصداء المشرق والمغرب في تغذيت الحركة الوطنية والنهضة في الجزائر بأفكارها الواردة عبر الصحافة والزيارات المتبادلة غير أنها كانت عامل ثانوي فقط فلم تكن الأساس والقاعدة التي انطلقت منها الحركة الوطنية الجزائرية.

ولكن الظاهر أن الأشرف قد تحامل كثيرا على نخب المدن الجزائرية، وهذا يجانب الحقيقة التاريخية، لأن سكان المدن كما قلنا آنفا لعبوا دورا محوريا في تاريخ الحركة الوطنية منذ مطلع القرن الماضي.

أما بالنسبة لنظرته لمراحل الحركة الوطنية الجزائرية، كانت نظرة سطحية من جهة وغير موضوعية من جهة أخرى، حيث أقصت الكثير من الفاعلين في الحركة ووافقت إلى حد بعيد نظرة المؤرخين الفرنسيين الذين ينتقلون من المقاومات الشعبية إلى حركة الأمير خالد مباشرة متجاوزين حلقة مهمة من التاريخ الوطني والمتمثلة في فترة النهضة في بداية القرن العشرين القائمة على إعادة البعث الحضاري والوعي الفكري للجزائر حتى تعي ما يدور حولها فتستيقظ وتنهض لتغير من واقعها المر، وتكمن أهمية هذه الفترة في كونها إطارا مرجعيا استمدت منها الحركة الوطنية فيما بعد توجهاتها وأيديولوجيتها.

كما أن ادعاء "الأشرف" بأن وطنية المدن بدأت في باريس في الأوساط العمالية بعد تأسيس نجم شمال إفريقيا هو بمثابة تعصب للانتماء السياسي والإيديولوجي، لأن الحركة الوطنية الجزائرية في شكلها السياسي والجمعوي كانت مشكلة من مجموعة من التيارات: التيار الاستقلالي، التيار الإصلاحي (حركة الإصلاح وجمعية العلماء المسلمين) وتيار المنتخبين، وكل تيار ساهم بوسائله وأفكاره في إذكاء روح المقاومة لدى الجزائريين لتنصهر هذه التيارات في جبهة التحرير الوطني التي قادت الثورة التحريرية إلى غاية تحقيق النصر واستعادة السيادة الوطنية.

[1]- محمد الطاهر فضلاء، **دعائم النهضة الوطنية الجزائرية** ، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1984م، ص 89.

- **خاتمة:**

مما تقدم يمكن الاستنتاج أن مصطفى الأشرف في تناوله للحركة الوطنية الجزائرية خاصة ما بين (1830-1945م) كان يعتقد بأن التاريخ الوطني كانت يحركه صراع الطبقات بالدرجة الأولى بين طبقة الأهالي الكادحة من جهة والبرجوازية الجديدة (المستوطنون وأعوان الاستعمار من الأهالي). ويعتبر أن الفاعل والرئيسي في تاريخ المقاومة هم الفلاحون، فسكان المدن في نظره كانوا أقل ارتباطا بالقضية الوطنية إلى غاية الثورة التحريرية التي كانت بمثابة الإعلان عن القطيعة مع الاستعمار. لذلك يمكن اعتبار مصطفى الأشرف مثقفا عضويا لم تؤثر فيه مدينة الجزائر العاصمة أو باريس فبقى على علاقة وثيقة بالوسط الذي ينتمي إليه.

ولكن رغم ذلك فكتابات الأشرف تعتبر مصدرا هاما في تاريخ الحركة الوطنية وفي تاريخ المجتمع الجزائري المعاصر، فلا غرو إذا قلنا بأن الأشرف المؤرخ الجزائري الوحيد الذي استطاع أن يعطينا صورة حية عن تطور المجتمع الجزائري بفعالياته المختلفة بمعزل – رغم صعوبة ذلك- عن الإدارة الفرنسية ، لأن جل المؤرخين - في اعتقادي- إذا كتبوا عن الجزائر المستعمرة يؤرخون للإدارة الاستعمارية أكثر من التأريخ لفعاليات المجتمع الجزائري . كما أن جهود الأشرف في التاريخ تعتبر لبنة هامة من أجل التأسيس لمدرسة تاريخية جزائرية قادرة على التخلص من إرث المدرسة التاريخية الاستعمارية.

قائمة المراجع:

العربية:

- أجرون شارل روبير ، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م**، ج1، ترجمة: م.حاج مسعود، ع. بلعربي، دط، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م

- الأشرف مصطفى ، **الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة: حنفي بن عيسى، م.و.ك، ط1، الجزائر، 1983م.

- بوصفصاف عبد الكريم ، "مشروع المجتمع الجزائري في نظر النخبة الوطنية -مصطفى الأشرف نموذجا" ، **مجلة الحوار الفكري** ، جامعة منتوري، قسنطينة (الجزائر)، ديسمبر 2005،ع07، ص 25.

- بوعزيز يحي ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ثورات القرن التاسع عشر**، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م.

- يحي بوعزيز يحيى، **ثورة الباشاغا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م**، ، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر 2009م.
- بن سليمان فريد ، **مدخل إلى دراسة التاريخ**، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000م.
- بلحسن عمار، **إنتليجانسيا أم مثقفون في الجزائر**، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1986م.
- بقطاش خديجة، **الحركة التبشيرية في الجزائر (1830-1871)** 1، منشورات دحلب، ط1، الجزائر 1992م .
- كارل ماركس، فريدريك إنجلز، **البيان الشيوعي**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، دت، ص 206.
- خليل كمال، **المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر التأسيس والتطور 1850 – 1951**، رسالة ماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة منتوري بقسنطينة (الجزائر)، 2008.

- مريوش أحمد ، "ثقافة المقاومة ونماذج من عرائض الأهالي الجزائريين إلى فرنسا خلال القرن 19"، **حوليات التاريخ والجغرافيا** ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة (الجزائر)، ع6، ديسمبر 2012م، ص 106.
- سعد الله أبو القاسم ، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**،ج1، ش.و.ن.ت، ط1، الجزائر، 1988م.
- سعد الله أبو القاسم ، **الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**، ج2، دار الغرب الإسلامي ، ط4، بيروت، 1992م.
- سعد الله أبو القاسم ، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال**، دار الرائد، عالم المعرفة، طبعة خاصة، الجزائر 2009م.
- صديقي عبد الحميد ، **تفسير التاريخ**، ترجمة: كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، 1970.
- قرين مولود ، **عمر بن قدور الجزائري دوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دراسة في فكره السياسي والإصلاحي**، ج1، دار الخليل العلمية، الجزائر، 2013م.
-فضلاء محمد الطاهر ، **دعائم النهضة الوطنية الجزائرية** ، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1984م.

- عباس فرحات، **حرب الجزائر وثوراتها، ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال،مطبعة فضالة، المحمدية، دت.

الأجنبية:

- Ben Nabi Malek, **L'Idée d'un Commonwealth Islamique**, Imprimerie de la Faculté d'Alger, Algérie, 1970.

- Lacheraf Mostafa , **Des Noms et des lieux, mémoire d'une Algérie oubliée**, Casbah, 2eme éditons, Alger, 2003.

- Rinn Louis, **Histoire de L'Insurrection de 1871 en Algérie**, Imp: Jourdan, Alger, 1890.